Archive of SID

مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١٥، العدد ١، ربيع ١٤٤٠هـ
صفحة ١٥٧ – ١٨١ (مقالة محكمة)

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
https://jal-lq.ut.ac.ir/

براعة التخلص في النص القرآني سورة الكهف أنموذجا

زينب السالم[١*]، سيد مالك زين العابدين[٢]

١. أستاذة مساعدة، قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة المصطفى العالمية، قم، إيران
٢. ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، فرديس فارابي، قم، إيران

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٨/٨/٢٨؛ تاريخ القبول: ٢٠١٩/٤/١٣)

الملخّص

ينفرد القرآن الكريم بإعجازه ونظمه في جميع سوره وآياته، ويعدّ التخلص من أهم الفنون البلاغية المتّبعه في نظمه، يهتم البحث ببراعة التخلص وحسنه في آيات القرآن الكريم عامّة، ولأجل فهمه وتصوره بشكل صحيح كانت سوره الكهف أنموذجا له، بما فيها من الانتقال من قصة إلى أخرى بطريقة بلاغية وتخلص رائع، وهدف البحث دراسة "براعة التخلص" في كتاب الله الذي هو أبلغ الكلام ذي الظاهر الأنيق والباطن العميق الذي لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلّا به، فإنّه على تنوع إعجازه وطول سوره وآياته، ينتقل من مقصد إلى مقصد، وينقلك بين هذه المقاصد بطريقة بلاغية عجيبة. يؤكد البحث على الترابط بين اصطلاح "التخلص" وبعض المصطلحات التي تتداخل معه، كـ"الاستطراد"، أو التي تقابله كـ"الاقتضاب"، وأهمية المقال تكمن في التركيز على قوة الربط والانتقال بين آيات القرآن وسوره، مراعيا المناسبة في سياقه، مشيرا إلى هدفه من الإبلاغ وقصده من الخطاب، لّما يتحدث عن معنى من المعاني ثم ينتقل إلى آخر، أو يدمج معنا في معنى، ونجده في كل ذلك مراعيا التخلص في انتقاله، بحيث لا يشعر السامع وهو في المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما، وطريقة التحليل واستقراء الكثير من الآيات والسور هي المتبعة في الكتابة، من خلال الاعتماد والتركيز على بلاغة النص القرآني وتلاؤمه في سياقه وانتقاله بين مقاصده بطريقته التخلصية الحسنة، فتوصّل البحث إلى أنّ القرآن الكريم سلك روعة "التخلص" في نصّه، يتخلص من فكرة إلى قصة أو إلى قصص متعددة مطابقة لفكرة واحدة يبدأ بها السورة، كـ"الزينة" في سورة الكهف، التي طبقتها السورة على القصص الأربع فيها، وهي تنتقل بتخلص حسن بديع، وتربط بين حقائقها التشريعية العقائدية، فتظهر عظمة الخالق وعجيب صنعه.

الكلمات الرئيسة

التخلص، الاستطراد، الاقتضاب، التشبيب، السياق، المناسبة، سورة الكهف، الزينة.

---

* الكاتب المسؤول
Email: d.z.alsalem@gmail.com

www.SID.ir

Archive of SID

مقدمة

لقد اهتم المفسّرون اهتماما بالغا بهذا الفن بتدبّرهم للمناسبة بين الآيات والفقرات والسياق القرآني، التي قد يراها قارئ القرآن لأول وهلة متفاصلة لا علاقة واضحة فيما بينها، بينما يجعل الحافظ للقرآن روابط وهمية من أجل ان يتذكر توالي الآيات ليتقن حفظها، والحال أنّها تتضمن علاقات وروابط فيها من الخفاء والدّقة ما فيها.

يبدأ المتكلم بعيدا عن غرضه المقصود، ثم ينتقل مما بدأ به إلى هدفه من الكلام وقصده من الكتابة أو الخطاب، فبدايته هي التمهيد، وانتقاله هو التخلص، فالمتكلم إمّا أن يتحدث عن معنى من المعاني ثم ينتقل إلى آخر، أو يدمج معنا في معنى، أو يضمّن كلامه كلام غيره وحكم من سبقه، أو يقتبس من كلام الله وسنّة رسوله، فعليه في كل ذلك أن يراعي التخلص في انتقاله، والمناسبة في استطراده، والموازنة في اقتباسه، ممّا لا يشعر السامع أو القارئ بهذا الإنتقال والتخلص من موضوع إلى آخر، وينتقل مما ابتدأ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاساً دقيقاً، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما، هذا ما يتفنّن به البلغاء من الخطباء والشعراء الذين يبرعون ويتنافسون في كتاباتهم، ويعيبون من كان كلامه خال من هذا التفنن والتأنق.

فنرى النص القرآني ينتقل من موضوع إلى آخر، ومن فكرة إلى أخرى، ومن غرض إلى غرض، ومن فكرة إلى قصّة، أو من قصّة إلى فكرة، ومن قصّة إلى قصّة، ومن تكوين إلى تشريع أو العكس، ومن علّة إلى معلول أو العكس، ومن تمهيد إلى مقصد، ومن ذكر دلائل القدرة إلى ذكر الموعظة والعبرة، ومن أمور مادّية حسيّة إلى أمور تجريدية معنوية، ومن الحاضر إلى الماضي، ومن سعة قدرته تعالى إلى سعة علمه، ومن آياته الأنفسية إلى آياته الآفاقية، وهكذا، وفي كل ذلك يتجسد الإعجاز البلاغي الفريد.

ولا بدّ من التدبر في كلّ ذلك من أجل معرفة أسرار الترابط المعنوي والدلالي بين تلكم الآيات في سياقاتها المختلفة، وقد أفرد البلاغيون فنّا من فنون البلاغة وقراءة النصوص بعنوان "فن التخلص" أو ما يسمى باللغة الفارسية "گريز"، وفي الانكليزية (Disengagement, Euphemism)، تحدّثوا فيه عن "براعة التخلص" أو "براعته" في النصوص القرآنية والأدبية الإنسانية، فالمتكلم والكاتب إمّا أن يتحدث عن معنى من المعاني ثم ينتقل إلى آخر، أو يدمج معنا في معنى، أو يضمّن كلامه كلام غيره وحكم من سبقه، أو

www.SID.ir

Archive of SID

يقتبس من كلام الله وسنّة رسوله، فعليه في كل ذلك أن يراعي التخلص في انتقاله، والمناسبة في استطراده، والموازنة في اقتباسه، ممّا لا يشعر السامع أو القارئ بهذا الانتقال.

إنّ من الأفضل ونحن نتحدث عن النصوص القرآنية أن لا نعبّر عنهُ بـ"التخلص"، ونستبدله بالعلاقات السياقية أو الترابط بين سياقات آياته وفقراته؛ لأنّ اصطلاح "التخلص" قد يكون منسجما مع النصوص البشرية الإنسانية أكثر من انسجامه مع النصوص الإلهية الربّانية، ولعل هذا الذي أوصل أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي بانكاره التخلص في آي القرآن، بقوله: «إن القرآن خال من التخلص» (ابن الأثير، ١٤٢٠: ٢/٢٥٣)، وإنما هو الخروج من كلام إلى كلام آخر بلطيفة تلائم بين الكلامين، الذي خرج منه، والذي دخل إليه، ويعتبر التخلص تكلفا، كما هو الحال في مصطلح "السجع" الذي يتجنّبه المفسّرون في وصف فواصل الآيات المباركة؛ لأنّه غالبا ما يكون على حساب المعاني والدلالات.

إنّ التدبّر القرآني لا يقتصر على نظم الجمل في الآية الواحدة، بل هناك سياقات أخرى لا بدّ من الاهتمام بها، والتدبر في علاقاتها، وتوضيح التخلص فيها، كتخلص الآية للآيات التي قبلها والتي بعدها، أو الفقرة بالنسبة إلى ما قبلها وبعدها من الفقرات في السورة الواحدة، ويظهر ذلك واضحا في سورة الكهف المباركة.

وستكون الإجابة عن الأسئلة التالية:

١) ما هو التخلص في النص القرآني؟
٢) ما هي علاقة التخلص، بالمناسبة والاستطراد والاقتضاب؟
٣) ما هي نماذج التخلص في القرآن الكريم؟
٤) كيف نطبق التخلص في سورة الكهف؟

فرضية البحث

- براعة التخلص تظهر في الانتقال من المقدمة إلى المحاور الرئيسية في الكلام، حيث لا روابط بينها.
- يطلق سوء التخلص على الكلام المتشتت المتفكك.
- لمّا يكون الربط بين فقرات النصّ، شديدا، والسابق بحاجة إلى اللاحق لا ينفك عنه، يتحقق علم المناسبة.
- مصطلح التخلص يقرب من الاستطراد، ويقابل الاقتضاب.
- حسن التخلص يظهر في سورة الكهف واضحا.

www.SID.ir

Archive of SID

الدراسات السابقة

طرحت أكثر كتب البلاغة موضوع "التخلص"، باعتباره بحثاً مهماً في اللغة، كما كتبت مقالات عديدة تتناوله، منها:

- كتاب البديع في البديع، لابن محمد المعتز بالله (المتوفى ٢٩٦هـ)، ويطلق على التخلص في كتابه بـ"حسن الخروج"، يريد بحسن الخروج ما يشمل التخلص والاستطراد.
- كتاب الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة الملقب بالمؤيد بالله (المتوفى ٧٤٥هـ)، ويفرد فصلا بعنوان: التخلص والاقتضاب، ويجعل فضل الناظم والناثر فيهما، ويردّ على من أنكر ورود التخلص في القرآن، ويورد أمثلة عديدة من "التخلص" في كتاب الله.
- كتاب خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي (المتوفى ٨٣٧هـ)، ويفرد له ذكرا خاصا به، ويذكر الفرق بين التخلص والاستطراد، بأنّ الاستطراد يشترط فيه الرجوع إلى الكلام الأول، أو قطع الكلام، وهما معدومان في التخلص، ويعطي أمثلة كثيرة من الشعر العربي فقط.
- بحث الدكتورة آلاء أحمد حسن، الأستاذة في جامعة الموصل، كلية الآداب، بعنوان: مراحل التطور البلاغي والنحوي في البلاغة العربية "حسن التخلص أنموذجا"، تؤكد فيه على إعجاز القرآن في أسراره اللغوية، وعلى التخلص حصرا، وتعدّه غاية في الروعة والإبداع.
- بحث بعنوان "حسن التخلص في سورة النور" للأستاذ المساعد في كلية الشريعة في جامعة اليرموك، الدكتور زكريا علي محمود الخضر، يذكر العلاقة بين حسن التخلص وعلم المناسبات، ويذكر إهتمام المفسّرين فيه وأنّه أحد الأوجه البلاغية في إعجاز القرآن الكريم.

المبحث الأول: مباحث تمهيدية

معنى التخلص

خلص الشيء خلوصا فهو خالص، و«خَلَصْتُ إليه: وصلت إليه» (العين، باب خلص)، و«خلَّصْتُهُ من كذا تَخْلِيصا، أي نجّيته فتَخَلَّصَ» (الصحاح تاج اللغة، باب خلص)، و«يقال خلص من ورطته سلم منها ونجا وخلص من القوم اعتزلهم وانفصل منهم وفي التنزيل العزيز: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ (يوسف/٨٠)» (المعجم الوسيط، باب خلص). و«الخالص في اللغة

www.SID.ir

Archive of SID

كلا، صفى وتخلص ولم يمتزج بغيره» (الطريحي، ١٤٠٨: ٦٨١). فالتخلص في اللغة،الانفكاك من الشيء أو الخروج عنه، ويأتي في الاصطلاح بثلاث استعمالات:

الأول: ما يوافق المعنى اللغوي وهو الانفكاك من الشيء والتخلص منه، و«تخلّص زيد من مشكلته، نجا وسلم» (الحيدري، ١٤٢٣: ٢٠١) كقولك: هذه محنة لا أدري كيف التخلص منها، وقولك للشيء الملتصق: لايمكن التخلص منه، «ولا ينبغي لمن أساء إلى ذي سلطان أن يقع في يده، فإنه إذا رام التخلص لم يقدر» (ابن الجوزي، ١٩٧١: ٢٨٤).

الثاني: وهو ما يسمّى بـ"الاسم القلمي" أو التخلص عند الشعراء، أي يتخلص من اسمه الحقيقي إلى اسم مستعار يتخذه الكاتب ينسبه لنفسه رغبة في التخفي، وهذه ظاهرة عرفها الأدب القديم والحديث، باتخاذ اللقب أو الاسم المستعار الذي يختاره الشاعر لنفسه، بدلا من اسمه الحقيقي، و«الاسم القلميّ هو الاسم المستعار للكاتب» (عبدالحميد، ١٤٢٩: ٢/١١١٤)، وقد يذكره في آخر بيت من الغزل فيسمى هذا البيت بعقر القصيدة، وهو مأخوذ من معنى التخلص عند البلغاء بمعنى ذكر المادح لاسمه في المدح والانتقال إلى المقصود مع رعاية المناسبة، فيبدأ الكاتب بالتشبيب، وينتهي بالتخلص، والتشبيب هو الابتداء بالأمر «ذكر أيام الشباب واللهو والغزل وذلك يكون في ابتداء قصائد الشعر يبدأ به أولا هذا هو الأصل، ثم يسمي ابتداء كل أمر تشبيبا» (الواحدي، لا تا: ٣١٧). أمّا التخلص حيث ينتهي الكاتب إليه فـ «هو اللّقب أو الاسم الذي يخترعه لنفسه» (الفاروقي، ١٩٩٦: ٢/١٣٢٣).

الثالث: أو ما يسمى في البلاغة بحسن التخلص، وهو الوصول مما افتتح به الكلام إلى المطلوب المقصود مع رعاية المناسبة في الانتقال، وفي الشعر «بيت التخلص، وهو البيت الرابط بين الغزل والمدح» (عباس عباس، ١٩٨٣: ١/٥٢٧) أي «الانتقال من غرضٍ إلى غرضٍ آخر، ومن معنى إلى معنى مختلف، وذكروا له شروطاً وهي أن يقع الاتصال ويُؤْمَن الانفصال أولاً، وتلاؤم الطرفين ثانيا» (مطلوب، ١٩٨٩: ٢٧٤). والانتقال بهذه الصورة من قصة إلى قصة أخرى أو «من ضَرُورَة إِلَى ضَرُورَة» (البغدادي، ١٤٠٦: ١١/٣٧٩)، يسمى في علم البلاغة: حسن التخلص، فينتقل من غير أن يقول مثلاً: مشهدا جديدا، أو فصلا جديدا، وإنما هي كلها متصلة ببعضها، ويخرج من شيء إلى شيء من غير أن تشعر أنك خرجت ودخلت في شيء آخر، لا أن «يأتون بها شتّيتا مفكّكا غير متماسك ولا متجاذب مما يعاب الشعراء من أجله بسوء التخلص» (الزرقاني، ١٩٩٦: ٢/٢٢٨).

www.SID.ir

Archive of SID

وهو مما «يتصل بالسرقات الشعرية» وعُرّف بأنّه «الخروج والانتقال مما ابتدأ به الكلام إلى الغرض المقصود، برابطة تجعل المعاني آخذا بعضها برقاب بعض، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال لشدة الالتئام والانسجام» (الهاشمي، ٢٠٠٧: ٣٤٤)، وغالبا ما ينتهي حسن التخلص في الشعر العربي بالمديح، وما يترقب من يد الممدوح من نفع «ومن المؤسف أن ينتهي ـ حسن التخلص ـ غالبا بالمديح ونحن لا نقر هذا المديح ولا نعترف به» (درويش، ١٤١٥: ٤/٤٥٣)، وقد يكون هذا المديح عاديا بل ومناسبا عند بعضهم، فيكون التخلص «واسطة للانتقال من الغزل إلى المدح بوجه مناسب وإذا لم يذكر التخلّص في القصيدة فإنّها تسمّى مقتضبة» (الفاروقي، ١٩٩٦: ٢/١٣٢٣)، «ثم يتفاضل الناس في التخلص، فعلى قدر الاقتدار في النظم والنثر يكون حسن التخلص» (العلوي، ١٤٢٣: ٢/١٧٣)، والمقصود منه «الإنتقال بخفة من فنّ الى آخر من فنون الكلام» (الخضر، ١٤٣٢: ٥)، وسمّاه ابن المعتز بـ"حسن الخروج" (راجع: ابن المعتز، ١٤١٠: ٣٥).

وتحت عنوان «توجيه العناية في صناعة الكلام الأدبي» يسمّي الميداني، «حُسْنَ الانتقال من المقدمة إلى الموضوع الرئيسي في الكلام، بما لا يشعُرُ المتلقّي معه بالانتقال» بـ «حُسْنَ التخلّص». ويجعلها من الأمور الثلاثة المهمّة في صناعة الكلام والتي هي: «براعة الاستهلال، وحُسْنِ التخلّص، وبراعة الختام»، وهو فن حديث شاع بعد نزول القرآن وعنايته به واستعماله، فلم «يكن هذا الفنّ متّبعا عند شعراء وخطباء العرب القدماء» (حَبَنَّكَة، ١٤١٦: ٢/٥٦١).

وقد عرّفه الميداني بـ «أن ينتقل الشاعر أو الناثر من فنّ من فنون الكلام إلى فنٍّ آخرَ، أو من موضوع إلى موضوع آخرَ بأسلُوبٍ حسَنٍ مستطاب، غير مستنكر في النفوس ولا في الألباب، وأحسنُه ما لا يشعُرُ المتلقّي معه بالانتقال، لما أحدثه التمهيد المتدرّج من تلاؤم، أو لحُسْنِ اختيار المفصل الذي حصل عنده الانتقال، أو لغير ذلك» (حبنكة، ١٤١٦: ٢/٥٦١)، أما القزويني فقد عرفه بأنّه «الانتقال مما شبب الكلام به من تشبيب أو غيره إلى المقصود مع رعاية الملاءمة بينهما؛ لأن السامع يكون مترقبا للانتقال من التشبيب إلى المقصود كيف يكون فإذا كان حسنا متلائم الطرفين حرك من نشاط السامع وأعان على إصفائه إلى ما بعده» (القزويني، ١٩٩٨: ٣٩٣).

والمعنى الثالث هو المقصود من "التخلص" في هذا البحث والمأخوذ بنظر الإعتبار، في آي القرآن الكريم وسوره، بما فيه من بلاغة ودقة وتلاؤم وهو ينتقل بآياته من معنى إلى آخر ومن قصة إلى حكمة، ومن دعوة لتغيير إلى هدف للتطبيق، وهكذا حتى يخرج الناس بأسلوبه العميق، من الظلمات إلى النور، وستكون الدراسة التطبيقية لروعة التخلص في سورة الكهف.

www.SID.ir

Archive of SID

العلاقة بين التخلص والمناسبة

علينا أن نفرّق بين حسن التخلص والمناسبة، في اختلاف الروابط بين فقرات النص، ففي حسن التخلص لا توجد روابط بين الموضوعات وإنّ الإنتقال بينها يكون بإيجاد علاقة مميّزة، وانتخاب موضوع مشترك يربط بين فقراتها، فالفقرة الأولى متكاملة ليس بحاجة الى الفقرة التالية، وإنّما تطرح لإكمال الفكرة، بشكل لا يجعل القارئ يشعر بهذا الانتقال، هذا في "التخلص" أمّا "المناسبة" فيكون الربط بين فقرات النصّ، شديدا، والسابق بحاجة إلى اللاحق ولا ينفكّ عنه، كالعلّة والمعلول، فيوجد بينها تلازم ذهني، فالمناسبة في اللغة، «المشاكلة» (الزبيدي: ١٩٨٤: ٤/٢٦٥)، والمناسبة في الإصطلاح هي ربط بين الفقرات «عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلّة والمعلول، والنظيرين والضدّين ونحوه» (السيوطي، ١٣٩٤: ٢/٢٨٩)، ويدعى ترك المناسبة «التجميع» (الخفاجي، ١٣٠٢: ١٧٨) والمقصود من المناسبة في آيات القرآن، وضع الآية في موضع يناسبها، وارتباط الكلام بوقوعه في نص متّحد مرتبط أوله بآخره. وعلم المناسبة أو «التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض» (الشاربي، ٢٠١٣: ٨٨). من الظواهر السياقية للنص. ومن تناسق القرآن الكريم،

ومناسبة المعاني، أن يبتدئ المتكلم بمعنى، ثم يتمّم كلامه بما يناسبه معنى. وهي كثيرة في الكتاب العزيز «فإن نظرنا الى قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ، أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ**﴾ (السجدة/٢٦-٢٧)، وجدنا الموعظة في صدر الآية ﴿**أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ**﴾ ولم يقل ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا**﴾ لأنّ الموعظة سمعية، وفي ذيل الآية ﴿**أَفَلا يَسْمَعُونَ**﴾. أمّا في صدر الآية التي موعظتها مرئية: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا**﴾، يقول بعد الموعظة البصرية ﴿**أَفَلا يُبْصِرُونَ**﴾» (راجع: الحموي، ٢٠٠٤: ٣٦٧). والفائدة من معرفة المناسبة هو «جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم» (القيعي، ١٤١٧: ٦٠). وإن أردنا أن نعرف المناسبة بين آيات السورة الواحدة، فعلينا أن نفهم الغرض الذي من أجله سيقت السورة، وما ينقل السامع من حالة إلى حالة، و«التعرف على الانسجام الكامل بين أول السورة ونهايتها» (القيعي، ١٤١٧: ٦٣)، فـ«رعاية المناسبة، فيه حسن التخلص» (الدسوقي، لا تا: ٤/٢٩٣)، وتعتبر «المناسبة بين الألفاظ» (الخفاجي، ١٣٠٢: ١٦٩) من شروط الفصاحة.

www.SID.ir

Archive of SID

فالفرق في رعاية المناسبة بين كلامين يحدّد المقصود، فإن كان «الخروج ممّا ابتدئ به الكلام وافتتح به المقال إلى المقصود، مع مراعاة المناسبة بين المبدأ والمقصود فهو تخلّص وإلّا فاقتضاب أي ارتجال واقتطاع. ومن الاقتضاب القريب من التخلّص قولهم: (أمّا بعد)» (راجع: نظام الأعرج، ١٤١٣: ٣٥-٣٦).

العلاقة بين التخلص والاستطراد

فنّ (الاستطراد) يقرب من فن (التخلص) بفروق بلاغية بسيطة، ويحتاج الكاتب أن يتعرف عليها لينتقل من مقصد إلى مقصد، وينقل القارئ بين هذه المقاصد بطريقة عجيبة، ومن خلال التعرف على الاستطراد، يتّضح التخلص، فالاستطراد «فن دقيق متشعب، يجنح اليه المتكلم في غرض من أغراض القول يخيل إليك أنّه مستمر فيه، ثم يخرج منه إلى غيره لمناسبة بينهما، ثم يرجع إلى الاول» (درويش، ١٤١٥: ٢٧٨/١)، ومعنى التخلص يقرب من الإستطراد حتى كأنّهما لا ينفصلان ولا يكادان يفترقان، «فالاستطراد قريب من التخلص» (ابن المعتز، ٣٦)، والإستطراد «أن يأخذ المتكلّم في معنى، فبينا يمرّ فيه يأخذ في معنى آخر؛ وقد جعل الأول سببا إليه» (العسكري، ٣٩٨)، بينما يجعل بعض البلاغيين فرقا بينهما فـ «في التخلص تركت ما كنت فيه بالكلّية وأقبلت على ما تخلصت إليه وفي الاستطراد تمرّ بذكر الأمر الذي استطردت إليه مرورا كالبرق الخاطف ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصده وإنما عرض عروضا» (السيوطي، ١٣٩٤: ٢٩٢/٢؛ الأبياري، ١٤٠٥: ٢٨٥/٢)، «كما يقول القائل: وعلى ذكر فلان فإنّ من شأنه كيت وكيت»، ولذلك يأتي الإستطراد عادة «من غير عاطف» (الزمخشري، ١٤٠٧: ٤٠١/١)، وربّما يكون الإستطراد كالجملة المعترضه، كما يذكر الزمخشري في تفسيره «كلام اعترض به على سبيل الاستطراد» (الزمخشري، ١٤٠٧: ٤٩٤/٣).

فمن الاستطراد في القرآن الكريم، «إنّه تعالى لما بيّن فضل الإنفاق في سبيله، وحثّ عليه، حذرنا من الجنوح إلى الشيطان وإلى شرور النفس، وحثّنا على الاعتماد على الحق بقوله: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ**﴾ (البقرة/٢٦٨)، ثم بيّن بقوله: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ**﴾ (البقرة/٢٦٩)، أن ذلك أمر يعرفه المتخصص بالحكمة التي يؤثر الله بها من يشاء، ثم رجع إلى ذكر النفقة بقوله: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ**﴾ (البقرة/٢٧٠)، وبيّن أن ذلك موضوع عند من لا يسهو أو لا ينسى، وصار ذلك الحكمة مع كونه متعلقا بما تقدم كالاستطراد والتنويه بذكرها، والحث على معرفتها والتخصيص بها» (الراغب الأصفهاني،

www.SID.ir

Archive of SID

١٤٢٠: ٥٦٨)، ومن الإستطراد أيضا، قول الله عز وجل: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (فصلت/٣٩)، فبينا يدلّ الله سبحانه على نفسه بإنزال الغيث واهتزاز الأرض بعد خشوعها قال: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى﴾ (فصلت/٣٩)، أخبر تعالى «عن قدرته على إعادة الموتى بعد إفنائها، وقد جعل ما تقدّم من ذكر الغيث والنبات دليلا عليه، ولم يكن في تقدير السامع لأوّل الكلام، إلا أنّه يريد الدلالة على نفسه بذكر المطر، دون الدّلالة على الإعادة، فاستوفى المعنيين جميعا» (العسكري، ١٤١٩: ٣٩٨).

ثم إنّ بعض المفسّرين يجعل الاستطراد إيذانا للتخلص، ويذكر ذلك في آخر سورة الفرقان، وفيه يطمع القارئ بأنّه استطراد لكنّه بالحقيقة من أبدع التخلص، «فبمناسبة ذكر من أراد أن يذَّكَّر تُخلّص إلى خصال المؤمنين أتباع النبي صلى الله عليه وسلم حتى تستكمل السورة أغراض التنويه بالقرآن ومن جاء به ومن اتبعوه.. وهذا من أبدع التخلص إذْ كان مفاجئا للسامع مطمعا أنه استطراد عارض كسوابقه حتى يُفاجئه ما يؤذن بالختام وهو ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾ (الفرقان/٧٧)» (ابن عاشور، ١٩٨٤: ١٥/٦٦).

العلاقة بين التخلص والاقتضاب

ومن أجل أن نفهم التخلص فهما صحيحا، علينا أن نعلم ما يقابله من معنى، فاصطلاح الاقتضاب يستعمله البلاغيون بمعنى يقابل التخلص، أو التخلص بـ"هذا"، و«هو الإتيان بالمقصود بلا ربط ومناسبة» (دسوقي، لا تا: ٢٩٥/٤)، ولمّا يذكر الحلّي، التخلّص ويعرّف حقيقته، بأنّه الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره بلطيفة تلايم بين الكلامين، يقول: «فإن كان الخروج بغير لطيفة وبغير مناسبة تربط بين الكلامين فهو الإقتضاب ويُسمّى الاقتطاع والارتجال أيضا، وهو أن ينتقل الناثر والناظم ممّا ابتدأ به الكلام إلى ما لا يلائمه» (الحلي، لا تا: ٨٧)، فالاقتضاب هو الفصل والتخلص هو الوصل، ويكون الإقتضاب «تنشيطا للسامع مفصولا بـ"هذا" كقوله بعد ذكر الأنبياء، ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (ص/٤٩)، فإن هذا القرآن نوع من الذكر. لما انتهى ذكر الأنبياء، وهو نوع من التنزيل، أراد أن يذكر نوعا آخر وهو ذكر الجنّة وأهلها، ثم لمّا فرغ قال: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ (ص/٥٥)، فذكر النار وأهلها» (الأبياري، ١٤٠٥: ٢٨٥/٢؛ السيوطي، ١٤٠٨: ٤٨/١)، كما كان قدماء العرب ينتقلون من معنى إلى آخر انتقالاً مفاجئا، «ينتقلون من الْغَزَل أو وصف أرضهم وأنعامهم، أو الحديث من قومهم أو بطولاتهم أو غير ذلك، إلى المدح أو الاستجداء أو غير ذلك مما هو

www.SID.ir

Archive of SID

مقصودُهم الأساسي»، أو يتبعون اسلوب الفصل لانتقالهم من موضوع لآخر «بنحو قولهم: "دعْ ذا" و"عَدِّ عنْ ذا" أو بغير ذلك» أو «الْفَصْلُ بعبارة "أمّا بَعْد" بعْدَ مقدّمة الحمد والثناء على الله عزَّ وجلَّ، والصلاة والسلام على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، أو الفصل "باسم الاشارة "هذا" أو "هذا ذكْرٌ" أو نحوهما" ممّا يُشْعِرُ بانتهاء كلام سابق وابتداء كلامٍ جديد في موضوعٍ آخر، ويُسمَّى هذا اقتضابا» (حبنكة، ١٤١٦: ٥٦١/٢)، والاقتضاب واضح في قوله تعالى: ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ (الجاثية/١١). «لأنّ لفظ "هذا" ينبّه السّامع على أنّ ما يلقى إليه بعده كلام آخر، والمقصود منه غير المقصود من الأوّل، فلم يؤت بالكلام الثّاني فجأة حتّى يشوّش على السّامع استماعه لعدم المناسبة، وأمّا التّخلّص بغير "هذا" فليس فيه هذا التّنبيه، فلذا كان أحسن» (البامياني، ٢٠٠٨: ٤٤٣/٤)، ومن الاقتضاب ما يقرب من التخلص «في أنّه يشوبه شيء من المناسبة (كقولك بعد حمد اللّه، أمّا بعد) فانّه كان كذا وكذا فهو اقتضاب، من جهة الانتقال من الحمد والثناء إلى كلام آخر من غير رعاية ملائمة بينهما، لكنه يشبه التخلّص حيث لم يأت بالكلام الآخر فجأة من غير قصد إلى ارتباط وتعليق بما قبله» (التفتازاني، ١٤١١: ٣١٧).

وبعضهم يجعل معنى الاقتضاب، القطع وذلك بأن «يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ولا يكون للثاني علاقة بالأول» (الموصلي، ١٩٩٥: ٢٤٤/٢).

ولمّا يذكر بعضهم التخلص ويقارنه بالإقتضاب، يجعل ملائمة الطرفين وعدم ملائمته فرقا بين التخلص والاقتضاب، «قد ينتقل من الفن الذي شبب الكلام به إلى ما لا يلائمه ويسمى ذلك الاقتضاب» (القزويني، ١٩٩٨: ٣٩٣)، «وإذا لم يكن بينهما مناسبة يُسمى اقْتِضَابًا كما هو المعلوم عند أهل البديع» (الحازمي، لا تا: ١/١٦).

المبحث الثاني: أنواع التخلص في القرآن الكريم

ولعل الباحثين في علوم القرآن قد لمسوا أجمل جوانب النصّ القرآني في سياقاته، حين درسوا وجوه المناسبة التي تربط السياق بين الآيات في السورة، أو حتى الترابط بين السورة والسورة التي تليها، لأنّ «حسن التخلص والاستطراد من أساليب القرآن» (السيوطي، ١٣٩٤: ٣١٠/١) وهو ما يذهب إليه الطباطبائي في ميزانه والكثير من المفسّرين الذين ركزوا على قيام القرآن على التخلص، وانّ النص القرآني قد سبق غيره في استخدام قانون التخلص في نظم آياته، وأنّ الأوائل والمحدّثين تبعوه في ذلك في تأليف أشعارهم ونثرهم.

www.SID.ir

Archive of SID

ولا يظهر حسن التخلص بعيدا عن السياق بوصفه امتدادا خطيا منظما للكلام، وسلاسله التي يحتويها السياق لابدَّ لحلقاتها أن تترابط لأن الترابط هو شرط المعنى، والاتصال بدون الترابط يصبح انفصالاً، فالسياق هو «كل ما يكتنف اللفط الذي نريد فهمه من دوال أخرى، سواء كانت لفظية كالكلمات التي تشكل مع اللفظ الذي نريد فهمه كلاما واحدا مترابطا، أو حالية كالظروف والملابسات التي تحيط بالكلام وتكون ذات دلالة في الموضوع» (الصدر: ١٩٩٧: ١/ ٩٠).

إنّ التخلص يتّضح جليّا في تدبر السياق القرآني، وهذا لا يقتصر على السياق في الآية أو سياق الآية بالنسبة إلى ما قبلها وبعدها، وإنّما يشمل كذلك العلاقة السياقية بين فقرات السورة الواحدة، من خلال اكتشاف العلاقات فيما بينها، ولابدّ من التدبر في كل ذلك لأجل معرفة أسرار تلكم السياقات، والبحث عن ترابطها المعنوي والدلالي، وقد أفردت البلاغة فنا من فنونها بعنوان "فن التخلص" للاهتمام بتلك العلاقات وتسليط الأضواء الكاشفة على طبيعة تلك المناسبات، وقد أشارت طائفة من القدامى والمحدثين إلى "التخلص" بوصفه سمة أسلوبية في النص القرآني، حتى جعله بعضهم القانون العام الذي ينظم الصياغة الكلية لهذا النص الفريد.

والترابط الذي يشكل سياق الآية، قد يكون بصورة واضحة أو بصورة تضمينيّة، وفي معظم العبارات، تشير الجملة التالية إلى كلمة في الجملة الأولى أما مباشرةً أو بواسطة ضمير، او ينتقل من موضوع إلى آخر بحسن تخلص لا يشعر به القارئ، وسنعرف ذلك من خلال علاقة النص القرآني بآياته وسوره فيما بينها بشكل "جسد حيّ" كما شبّهه المفسرون، بما فيه بنية مفصلية تساعد على الحركة في كافّة الاتجاهات، ببنية الجسد الذي يجمع بين أعضاء مختلفة، تتضافر في أداء الوظيفة الكلّية ويتحرك في الفراغ صانعا محاوره.

فالنص إذن جسد حيٌّ يستعرض قدرته على الحركة ويؤلف بين أعضائه، وبين محاور التماس التي تبدو غير مقصودة بين الكلام، ذلك من خلال مركزية الهيمنة في بنية التخلص التي يمكن من خلالها تعدد المداخل والمخارج في حركة الحياة للنصّ، ويرصد التنوعات الّلامحدودة داخل الوحدة الكلّية للسورة الواحدة، ويطلق عليها «جسم السورة» (الشاربي، ١٩٦٧: ١/ ٣٥)، أو «بناء الآية» (الشاربي، ١٩٦٧: ١/ ١٩٤).

وقد يبدء الخطاب القرآني بموضوع كلّي، ويتشعب بعده إلى أصناف عديدة، «وأمَّا حُسْنُ التخلّص، ممّا يُشْعِر بالانتهاء من الكلام على الْقِسْم السابق لِلْبَدْءِ بالكلام على قِسْمٍ آخَر

www.SID.ir

Archive of SID

من أقسامِ موضوعٍ كُلّي ذي أقسامٍ متعدّدة، ومن أمثلته ما جاء في سورة ص الآية ٣٨ إذْ جاء فيها بيان ثلاثة أصناف من الرسل، وقد يُلْحَقُ بأصنافهم المحسنون والأبرار من غيرهم» (حبنكة، ١٤١٦: ٥٦١/٢)، ويتجسد التخلص في «أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض ولا تكون مقتضبة ولذلك باب مفرد أيضا يسمى باب التخلص والاقتضاب» (الزركشي، ١٣٩١: ٤٤/١). وقد يكون الإنتقال بواسطة إذ الزمانية من التخلص «لقد أبدع نظم الآيات في التنقل من قصة إلى أخرى من دلائِل عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين، فقرَنَها، في قَرَن زمانها، وجعل ينتقل من إحداها إلى الأخرى بواسطة إذْ الزمانية، وهذا من أبدع التخلص، وهو من مبتكرات القرآن فيما أحسب» (ابن عاشور، ١٩٨٤: ٢٧٨/٩).

يأتي التخلص في آيات الذكر الحكيم بتسلّل الفكرة وتدرّجها في ذهن القارئ والمستمع والمطبّق للقرآن من غير انقطاع في الكلام واستئناف آخر، ومن دون أن يشعر بالانتقال والانقطاع، وقد استدرجت الفكرة ورتبت أثرها بواسطة التخلص وهي نوعان:

النوع الأول: التخلص من التكوين إلى التشريع وبالعكس

يبيّن القرآن الكريم، الارتباط بين التشريع والتكوين، بصورة استعمال التكوين لبيان أنّ قبول العقيدة والتشريع، أو رفضهما إنّما هو قبول أو رفض تكويني إضافة إلى القبول أو الرفض التشريعي، فحينما يأتي بتشريع أو حديث عن الرسالات السماوّية فإنّه غالبا يكون بعد ذكر الأمور الكونية كالسماء والأرض، ثم يتخلص إلى التشريع. ليوضح إنّ صاحب التشريع هو صاحب التكوين وإنّ الذي يعطي المنهج التشريعي هو الذي يعطي المنهج التكويني للكائنات ليكون التكوين بمثابة العلّة إلى التشريع، وهذا عينه «التفاعل المستمر بين الإنسان والكون» (الصدر، ١٤٢٠: ١٨)، ليكون تطور الإنسان وتفكيره منوطا بالموجودات الكونية «ثم يسيطر على ما استكشفه ويستثمره، فيغيّر بذلك حياته، ومحيطه، وهذه خطوة في طريق التطور الطويل تتلوها خطوات» (الصدر، ١٤٢٠: ١٨)، فالإنسان مخلوق له علاقات وارتباطات مع الكون، والذي يحدّد علاقاته مع الكون ومع بني نوعه، هو القرآن الكريم بذكر التكوين والتخلص إلى التشريع أو العكس، لذا فإنّ « التخلص لبيان الغرض من تعداد النعم وهو التوحيد وإثبات النبوة بمعنى التشريع والمعاد» (الطباطبائي، ١٩٧١: ٢٩٨/١٢)، «فكان خَلق أصلنا هو أبدع مظاهر إحيائنا الذي هو الأصل في خلق ما في الأرض لنا، فكانت المناسبة في الانتقال إلى التذكير به واضحة مع حسن التخلص إلى ذكر خبره العجيب» (ابن عاشور، ١٩٨٤: ٣٩٥/١).

www.SID.ir

Archive of SID

«وقد حصل من هذا حسن التخلص للانتقال إلى الاستدلال على عظم القدرة وسمو الحكمة وسعة العلم الإلهي» (ابن عاشور، ۱۹۸٤: ۱۸/۲٦۰)، «وفي قوله ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (لقمان/٥)، حسن التخلص إلى التفصيل الذي عقبه في قوله: ﴿وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ (لقمان/٦) الآية، فعطف على آيات سير الفلك، إشارة إلى أن الناس يذكرون الله عند تلك الآيات عند الاضطرار، وغفلتهم عنها في حال السلامة» (ابن عاشور، ۱۹۸٤: ۲۱/۱۹۰)، والأمثلة التالية من كتاب الله المجيد من سور متعددة وآيات متفرّقة:

ففي آيات سورة الرحمن «الخطة الإلهية المرسومة للإنسان، التي تجعل في الترتيب تعليم القرآن قبل خلق الإنسان ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ (الرحمن/۱-۳) وذلك لكي يجد الإنسان منذ أول موقف حياته أمام الكون هاديا وموجها وسبيلا» (راجع: ابن عاشور، ۱۹۸٤: ۲۱/۱۹) فيبدأ بالخلق والتكوين ليتخلص إلى موقف الإنسان من المنهج الربّاني، ليوحي أنّ الكون كلّه في سجود وطاعة وفي ميزان وحسبان، ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ، وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ، وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن/٥-۷) والإنسان كذلك لابدّ أن يراعي الموازين الربّانية ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (الرحمن/۸)، وإن كان يختلف عن الكون بامتلاكه الخيار.

أمّا سورة النبأ فينتقل فيها من الأختلاف والتساؤل والرفض في قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، عَنْ النَّبَإِ الْعَظِيمِ، الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ، كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾ (النبأ/۱-٥)، ببراعة تخلص إلى أسئلة تكوينية لتكون بمثابة العلّة لما سبقها من الرفض للتشريع، في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ الأَرْضَ مِهَادا، وَالْجِبَالَ أَوْتَادا، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجا، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتا، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسا، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشا، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعا شِدَادا، وَجَعَلْنَا سِرَاجا وَهَّاجا، وَأَنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجا، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّا وَنَبَاتا، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافا﴾ (النبأ/٦-١٦)، بإقامة الحجة من خلال ذكر الأمور التكوينية، فكل شيء في الكون له غاية وهدف وحكمة، والإنسان له غاية في مصيره مسوق سوق الإحتجاج على وقوع البعث والجزاء، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾ (ص/۲۷).

وهكذا في باقي السور التي تركز آياتها على التكوين ثم تتخلص إلى التشريع أو العكس، لذا يذكر العلّامة الطباطبائي، الرابطة بين التكوين والتشريع في بدء بيانه لسورة ابراهيم، بقوله: « النكتة فيه التخلص إلى ذكر صفة الربوبية وتسجيل أنه تعالى هو رب هؤلاء المشركين الذين اتخذوا له أندادا فإن وجه الكلام في الحقيقة إليهم وإن كان المخاطب به هو النبي ﷺ د ونهم ولتكون هذه التسمية وهي في مفتتح الكلام مبدأ لما سيذكر في السورة من الحجة على توحيد الربوبية» (الطباطبائي، ۱۹۷۱: ۱۲/۱۰).

www.SID.ir

Archive of SID

ويذكر العلّامة الطباطبائي براعة هذا النوع من التخلص في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (النحل/٦٥)، «في الآية رجوع إلى التخلص لبيان الغرض من تعداد النعم وهو التوحيد وإثبات النبوة بمعنى التشريع والمعاد، يجري ذلك إلى تمام أربع آيات ينهى في أولاها عن ضربهم الأمثال لله سبحانه، ويضرب في الثانية مثلا تبين به وحدانيته تعالى في ربوبيته، وفي الثالثة مثلا يتبين به أمر النبوة والتشريع، ويتعرض في الرابعة لأمر المعاد» (الطباطبائي، ۱۹۷۱: ۱۲/۲۹۸).

وبعد أن يعدّد الله تعالى الأزواج الثمانية والنعم التكوينية في سورة الأنعام ﴿وَمِنْ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾ (الأنعام/۱٤۲)، يتخلص إلى اجتناب الرجس والالتزام بالتشريع «لمراعاة حسنِ التَّخلصِ إلى ما بعدَهُ» (العمادي، لا تا: ٦/۱۰٥).

وقد تأتي عدة تخلصات في آية واحدة، «ومن أحسن أمثلته قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور/۳٥)، فإن فيه خمس تخلصات، وذلك أنه جاء بصفة النور وتمثيله، ثم تَخلص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها، ثم رجع إلى ذكرِ النور والزيت يستمد منه، ثم تخلص منَه إلى ذكرِالشجرة، ثم تخلص من ذكرها إلى ذكر الزيت، ثم من ذكرِ الزيت إلى صفة النور وتضاعفه، ثم تخلصَ منه إلى نعمة الله بالهدى على ﴿مَنْ يَشَاء﴾ (النور/۳٥)» (المطعني، ۱۹۹۲: ۱/۳۰۱).

النوع الثاني: التخلص من الفكرة إلى القصة وبالعكس

إنّ القصص القرآني ـ بشكل عام ـ في خدمة الفكرة المطروحة في الآيات التي تسبق القصة، وقد تكون الفكرة في آخرها، فالقصة فكرة مجسّدة وهي مصداق الفكرة المطروحة في السورة، والسياق هو الذي فرض الاتيان بالقصة على أساس الاستشهاد بها وتأكيد فكرتها، وترابط الفكرة مع الهدف النبيل من القصة، وكلما كان البناء الفني جيدا كان أقدر على إيصال الفكرة، وتحصيل الفائدة، ويظهر فيها «الكلام الشريف الآخذ بعضه بركاب بعض مع احتوائه على ضروب من المعاني، فيخلص من كل واحد منها إلى الآخر بلطيفة ملائمة حتى كأنه أُفرِغَ في قالب واحد» (المطعني، ۱٤۱۳: ۱/۳۰۱)، فقصص الأنبياء ـ مثلا ـ سيقت لابراز معاناة الانبياء في دعواتهم لمجتمعاتهم، كنتيجة طبيعية لعظم المسؤولية والمهام التي يتحملونها، والمشاكل والعقبات التي يواجهونها، وقد جاءت لتثبت قلب رسولنا الكريم في أكثر آيات السور المكية حيث المعاناة التي مر بها ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ

www.SID.ir

Archive of SID

﴿فُؤَادَكَ﴾ (هود/١٢٠)، وهذه نماذج من التخلصات القرآنية والانتقال من الفكرة إلى القصة، تظهر عند تدقيق النظر في سور القرآن الكريم التي تحمل في آياتها القصص والحكم الألهية التي تحتويها، حيث نجد التخلصات الحسنة والإنتقالات المتدرجة بالفكرة والقصة:

ففي سورة العنكبوت، تتضح القوى العنكبوتية التي تتخلص إلى النهاية البائسة لجميع أقوام الأنبياء المذكورين فيها. لتقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت/٤١). لقد كانت نهاية قوم نوح في السورة، ﴿فَأَخَذَهُمْ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت/١٤)، ونهاية قوم لوط، ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (العنكبوت/٣٤)، وقوم شعيب، أهل مدين، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (العنكبوت/٣٧)، ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ (العنكبوت/٣٩)، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ (العنكبوت/٣٩)، انّها النهايات البائسة للقوى العنكبوتية المعادية لرسل الله تعالى.

وسورة القصص التي تبدأ بالمنّ على المستضعفين بقوله تعالى ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص/٥)، نرى كيف تتخلص إلى تجلي المنّ الإلهي والتسديد الرباني في سير موسى ﷺ، من الإلقاء في اليم إلى إيتاء الكتاب وهلاك فرعون.

وسورة طه كذلك تتحدث عن معاناة الرسالة والدعوة إلى الله في بدايتها بقوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه/٢)، ثم تتخلص إلى بداية بعثة موسى ﷺ وما مرّ به من محن وآلام.

وتظهر براعة التخلص في سورة يوسف بوضوح تام، قصد التخلص في السورة، فلا بدّ من التوطئة له ومن بديعه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (يوسف/٣)، «يشير إلى قصة يوسف ﷺ فوطأ بهذه الجملة إلى ذكر القصة يشير إليها بهذه النكتة من باب الوحى والرمز» (الزركشي، ١٣٩١: ٤٥/١). «ثم وأخيرا سجد له أبواه وأخوته تحقيقا لرؤياه فناسب الختام البدء وكانت براعة التخلص من أجمل ما عرف في الكتابة» (درويش، ١٤١٥: ٤٥٣/٤).

www.SID.ir

Archive of SID

وسورة الأعراف التي أشارت إلى اتباع الرسول الكريم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ (الأعراف/١٥٧)، فهو «تخلص من التخلصات الحسان فإن الله تعالى ذكر الأنبياء والقرون الماضية إلى عهد موسى عليه السلام فلما أراد ذكر نبينا ذكره بتخلص انتظم به بعض الكلام ببعض» (الموصلي، ١٩٩٥: ٢٤٩/٢)، ويشير الزركشي في برهانه إلى هذا التخلص بقوله «ذكر الأمم الخالية والأنبياء الماضين من آدم عليه السلام إلى أن انتهى إلى قصة موسى عليه السلام فقال في آخرها ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ﴾ (الأعراف/١٥٥) إلى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ (الأعراف/١٥٧) وهو من بديع التخلص، واعلم أنه حيث قصد التخلص فلا بد من التوطئة له» (الزركشي، ١٣٩١: ٤٤/١).

أمّا قصة إبراهيم التي تذكرها سورة الشعراء، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الشعراء/٦٩) فيها يخرج «من ذكر الأصنام وتنفير أبيه وقومه من عبادتهم إياها مع ما هي فيه من التعري عن صفات الإلهية حيث لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، إلى ذكر الله تعالى فوصفه بصفات الإلهية فعظم شأنه، وعدد نعمه ليُعْلِم بذلك أن العبادة لا تصح إلا له. ثم خرج من ذلك إلى ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه، فتدبر هذه التخلصات اللطيفة في أثناء هذا الكلام، ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء/١٠٢)، فهذا تخلص من قصة إبراهيم وقومه إلى قوله هذا، وتمني الكفار في الدار الآخرة الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسل، وهذا تخلص عجيب» (المطعني، ١٤١٣: ٣٠١/١).

المبحث الثالث: دراسة تطبيقية للتخلص في سورة الكهف

ويظهر فيها حسن التخلص من فكرة (الزّينة) إلى أربع قصص تبيّن الموقف من الزينة سلبا أو ايجابا، تبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الكهف/٧)، لتصل إلى قوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف/٢٨)، ثمّ تبيّن حقيقة معلومة واضحة: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف/٤٦)، «ونهاية هذه الزينة محتومة، فستعود الأرض مجردة منها، وسيهلك كل ما عليها، فتصبح قبل يوم القيامة سطحا أجردا خشنا جدبا، ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدا جُرُزاً﴾ (الكهف/٨)» (الشاربي، ١٩٦٧: ٢٢٦٠/٤)، إنّ فكرة (الزينة) تثبت بما يليها من قصص ومصاديق تأريخية حيّة و«مجرد معرفتنا بأن الحياة هي

www.SID.ir

Archive of SID

زينة لا تحقق الأثر المطلوب، إلاّ إذا ربطناها بحقائق مكمّلة لها، كما لو قدمنا للقارئ نماذج تطبيقية لمن يتعامل مع زينة الحياة الدنيا إيجابيا أو سلبيا، وهذا ما توفرت عليه السورة الكريمة» (البستاني، لا تا: ٢)، ولمّا يذكر تعالى فكرة ثم يستأنف بقصة نرى براعة التخلص فيه واضحة بطريقة فنية «يستمر في المعنى الواحد وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقا بالأول وغير منقطع عنه» (الخفاجي، ١٤٠٢: ٢٦٨). وبعد هذه الفكرة تتخلص السورة إلى أربعة قصص تتوالى بتخلصات حسنة وانتقالات بديعة:

القصة الأولى: أصحاب الكهف

تبدأ السورة بالقصة الأولى وهي قصة أصحاب الكهف الذين أهملوا كل شيء، ونبذوا زينة الحياة الدنيا، وكانوا يحتلون مناصب كبيرة في الدولة كما يذكر التاريخ، ولكنهم تركوا ذلك واتجهوا إلى الكهف، هذا هو التعامل الإيجابي مع الزينة: «فتعرض نموذجا للإيمان في النفوس المؤمنة، كيف تطمئن به، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها، وتلجأ به إلى الكهف حين يعزّ عليها أن تعيش به مع الناس، وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة، ويقيها الفتنة، ويشملها بالرحمة» (الشاربي، ١٩٦٧: ٢٢٦٠/٤) ، هذا موقف من ترك الزينة، بينما يجعل بعضهم علاقة القصة بالزينة غير ذلك، فهو يربط بين أصحاب الكهف والزينة، بالمقارنة بالعظمة والإبداع والقدرة الإلهية، بقوله: «ليست قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة أعجب من حال الدنيا، فإن زينة الأرض وعجائبها أعظم وأبدع وأعجب من هذه القصة، فإن من قدر على تزيين الأرض ثم جعلها ترابا، وعلى خلق السموات والأرض، قادر على كل شيء، ومن قدرته أن يحفظ طائفة من الناس دون طعام وشراب زمانا معلوما» (الزحيلي، ١٤١٨: ٢١٥/١٥). فقد أثقل نومهم فلا يسمعون صوتا ولا يحسّون حركة، فكأنّهم قد ضرب على سمعهم بحجاب يمنعهم من السمع ﴿**فَضَرَبْنَا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً**﴾ (الكهف/١١)، لكن ذلك مع ربط قلوبهم والشدّ عليها، «حتى تتحمّل أعباء الدعوة، والربط فيه قوة وشدة» (الراغب، ١٤٢٢: ١٤٣) ، جزاء تركهم زينتهم التي كانوا فيها، وقيامهم بوجه الظلم، وجهرهم بالدعوة الى الله ﴿**وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**﴾ (الكهف/١٤).

القصة الثانية: صاحب الجنتين

وقصة صاحب الجنتين، هي القصة الثانية في السورة، وقصد تصوير الجنتين، بيان ثراء الرجل ونعمة الله عليه، وما انغمر فيه من زينة، فالجنتان ذوات ثمر، من أعناب تحيط بهما أشجار النخيل، وفيهما الثمار الكثيرة، وفي وسطها نهر جار، ﴿**جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا**

www.SID.ir

Archive of SID

بَيْنَهُمَا زَرْعاً، كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً﴾ (الكهف/٣٢-٣٣)، وبهذا الوصف تكتمل الزينة ووصفها. والتي تبيّن أنّ الزينة وما فيها من زخارف وعجائب، هي التي سحقت صاحب الجنتين، وجعلته يتجرأ بقوله لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ (الكهف/٣٤)، لقد سلكت به نظرته الى الزينة هذا المسلك فتطاول على صاحبه، واعتزّ بماله وجنته التي تفاخر بثمارها واشجارها ثمّ ازداد تطاوله على ربّه الذي أنعم عليه بكل هذه الزينة، فقال: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً﴾ (الكهف/٣٥-٣٦) يظهر الموقف السلبي من الزينة عند صاحب الجنتين بوضوح تام. وقد قدمت لنا سورة الكهف «نماذج سلبية مثل صاحب الجنتين حيث تشبث بزينة الحياة الدنيا» (البستاني، لا تا: ٢). وقد كشفت الآيات التي تخص هذه القصة، اغترار أحد الرجلين بزينته وبما لديه وتوهم البقاء والخلود، أمّا صاحبه فقد توكل على الله وما عند ربه وتيقن برجوعه وانتهاء أمره الى الله، فالآيات تنبؤنا إلى إزالة ما تخيل المفتون بقاءه، وعودته «كأن لم يكن، ولم يبق بيده إلا الندم، ولا صح له من جنته بعد عظيم تلك البهجة سوى التلاشي والعدم، وهذه حال من ركن إلى ما سوى المالك» (البقاعي، ١٤٠٤: ١٢/١٠).

وحسن التخلص من الزينة هو «بمثابة التعقيب على أحداث مقطع صاحب الجنتين، ومن وحي ذكر الزينة الفانية الزائلة، والباقيات الصالحات» (مسلم، ١٤٢٦: ٢٤٣)، وتؤكد القصة على فكرة ارتباط مصير البشرية بالموقف من الزينة، «لكن مجرد تقديم نماذج إيجابية أو سلبية لا يحقق أثره المطلوب، بل لابد من لفت نظر القارئ إلى المصائر الدنيوية والأخروية التي تترتب على نبذ زينة الحياة الدنيا أو عدم النبذ، وهذا ما توفرت عليه السورة الكريمة حينما أوضحت بأن صاحب الجنتين مثلا قد أبيدت مزرعتاه» (البستاني، لا تا: ٢)، وإنّ زينة الحياة الدنيا مصيرها إلى الزوال، فإذا تذكرنا أن السورة في مقدمتها قد ذكرت بأن الله تعالى قد جعل زينة الحياة صعيدا جرزا، «حينئذ عندما يربط القارئ بين هذه المقدمة وبين النتيجة التي لحظها بالنسبة إلى إبادة المزرعتين المذكورتين، تزداد قناعته بأن زينة الحياة الدنيا مصيرها إلى الزوال» (البستاني، لا تا: ٢).

أمّا تصوّر خطيئة، محيطة به في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾، أي هلاك ثمره واستئصاله، والمذنب محبوس في حصار ذنبه، وزينته الدنيوية التي انقلبت حتى قضت عليه. «وهذه صورة تجسيمية للمعنى الذهني، لها وقعها في الحسّ والنفس معا أكثر من أي تعبير ذهني مجرد، لا يتجاوز تأثيره العقل أو الذهن» (الراغب، ١٤٢٢: ١٢٠).

www.SID.ir

Archive of SID

وتحدث المفاجأة وهو في غمرة الافتتان بالدنيا وزينتها، يترك صاحب الجنتين يتخيل مشهد الأرض اليابسة الزائلة، وهو يذكر صورتها الأولى في نضارتها وزينتها، فيدرك أن زينتها خادعة، وأن حقيقتها فانية، ﴿**هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً**﴾ (الكهف/٤٤)، ليفهم قصر زمن الزينة، «وسرعة زوالها، وانمحائها، وصورة فناء الدنيا تلقي في الحس، احتقارها، وخداع مظاهرها، وتوجّه الإنسان إلى الحياة الباقية في الدار الآخرة» (الراغب، ١٤٢٢: ١٨١). وهذا الخراب والدمار الذي أصاب زينته التي وصفها بدقّة في أول القصة، يقابله الألم والندم لصاحبها، ثمّ تتخلص الفكرة الى نعمة الماء، واختلاطه بالنبات، ودوره في نموه، واندماجه مع ثمره، بشكل يشبه حب الناس للحياة الدنيا وتفاعلهم معا، مع علمهم بفنائها، وقوة الله القادر على كل شيء، بقوله: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً**﴾ (الكهف/٤٥). ثم تذكر السورة العرض على الله ووضع الكتاب وارسال الرسل، لتتخلص الى قوله: ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً**﴾ (الكهف/٥٩)، من أجل الدخول الى القصة الثالثة، بذكر القرى التي أهلكهم الله بظلمهم.

القصة الثالثة: موسى والعبد الصالح

التي تتخلص لها السورة المباركة، قصة موسى والعبد الصالح ويظهر حسن التخلص بوضوح حيث تنتقل السورة الى المعنى الباطني لظواهر الأمور، وما يختفي خلف الزينة، فالزينة الباطنية غير الزينة الظاهرية التي تتضح فيها النظرة الإنسانية للأمور والتي تختلف عن النظرة الإلهية، وتبيّن القصة، الفارق بين الحكمة الإلهية ذات الهدف البعيد والعميق في الحياة، والحكمة الإنسانية المحدودة، والموقف من الزينة الظاهرية والباطنية ﴿**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً**﴾ (فاطر/٨)، فالهدف الذي خرج بسببه موسى هو اللقاء بالعبد الصالح، ولو لم يقع حادث هروب الحوت وفقد أحد أنواع الزينة، لم يعودا الى مجمع البحرين، ولفات ما خرج لأجله وضاع الهدف من رحلته، وهكذا كل إنسان «يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم، ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم، وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذا من الله أن فوّت عليه هذا المطلوب في حينه، وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثا يكاد يتقطع لفظاعتها، ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل» (الشاربي، ١٩٦٧: ١/٢٢٤)، هكذا يلخص سيد قطب قصة

www.SID.ir

Archive of SID

موسى والعبد الصالح ولقاءهما ويوضح الأسرار المختبئة وراء كل فعل من أفعال العبد الذي آتاه الله الرحمة الألهية والعلم اللدنّي حسب وصف القرآن ﴿**عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً**﴾ (الكهف/٦٥).

القصة الرابعة: قصة ذي القرنين

قصة ذي القرنين ترتبط بالزينة وتتخلص في الإنتقال إليها بعد قصة صاحب الجنتين، فالقصتين متضادتين، فإنّ فكرة ﴿**زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ لم تستكمل بعد، ولا تزال قائمة، فلا نقول بأن زينة الحياة الدنيا لا قيمة لها، لكنّها تدلنا على كيفية التعامل مع هذه الزينة حتى نستفيد منها في تعديل سلوكنا، ولذلك نجد السورة، «تقدم لنا نموذجين متضادين: أحدهما صاحب المزرعتين الذي بهرته زينة الحياة الدنيا وهو لا يملك غير مزرعتين. والآخر (ذو القرنين) الذي تملّك مشرق الأرض ومغربها دون أن تبهره زينة الحياة الدنيا» (البستاني، لا تا: ٢)، وفي المقارنة بين صاحب الجنتين وذي القرنين، وموقفهما من الزينة، يذكر البستاني بأنّ «الأول أنكر قيام الساعة بقوله: ﴿**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**﴾ (الكهف/٣٦)، بينما الثاني أعلن بأن كل ما لديه هو ﴿**رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي**﴾ (الكهف/٩٨)، فلم تؤثر الزينة على تعامل ذي القرنين ولم تحتجزه وتوقفه عن التعامل الإيجابي مع الله تعالى» وخدمة البشرية، ولو أنّه قد سيطر على الأرض كلها، واستخدم الزينة الدنيوية لاتباع الأسباب والتقرب إلى الله. هذه أربع قصص ذكرت أحداثها في سورة الكهف، وهي مصداق النموذج الذي يرفض الزينة ويتجه نحو الله ليجسد الموقف الإيجابي من الزينة، أو يرى سلوكه السيئ حسنا؛ لأن الشيطان يزيّنه له، ويغريه به، ويضلّه عن حقيقته السيئة. «وختم بذي القرنين، لإحاطة أمره بما طاف من الأرض، ولما جعل من السدّ علما على إنقضاء شأن هذه الدار وختام أمرها، وطي ما برز من نشرها» (البقاعي، ١٤٠٤: ١٢/١٢) ويذكر السيوطي في إتقانه بأنّ من التخلص «قول ذي القرنين في السد بعد دكه الذي هو من أشراط الساعة ثم النفخ في الصور وذكر الحشر ووصف مآل الكفار والمؤمنين» (السيوطي، ١٣٩٤: ٢/٢٩٢)، فالانتقال إلى أحداث آخر الزمان، وربطها مع قصة ذي القرنين، بقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا**﴾ (الكهف/٩٨)، تلاحظ هذا الدخول وأنت تقرأ لا تشعر بأنك انتقلت من قصة إلى فكرة؛ لسلاسة الترابط، وهذا حسن التخلص.

وتعبّر سورة الكهف المباركة في آخرها ـ وهي تتخلص من القصص الأربعة ـ عن الفوضى والتدافع وتشببها بحركة الأمواج المتلاطمة ﴿**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي**

www.SID.ir

Archive of SID

الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ (الكهف/٩٩)، فقد انقلبت عليهم الزينة وبالا، وها هي تجعل **﴿بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾**، وهنا عادت السورة الى الموقف من الزينة التي تخلصت إليه حيث «تعبر عن القلق والاضطراب والتدافع وهي ملائمة لحركة الناس يوم البعث من القبور أو حركة يأجوج ومأجوج عند انهدام السدّ» (الراغب، ١٤٢٢: ١٢٨).

وهكذا لو أمعنا النظر في القصص التي ذكرها القرآن الكريم لوجدنا التخلص الدقيق من الفكرة إلى القصة، ومن القصة إلى الفكرة، فسبحان الله رب العالمين.

النتائج

يأتي الكلام في آي القرآن الكريم متماسكا متناسقا يتذوقه السامع، حيث حلاوته وجماله، فلا مجال فيه للتشتت والتفكك، مع تنوع أغراضه وطول سوره وآياته، ونلاحظه وهو ينقلنا من حكمة إلى أخرى وبطريقة إعجازية تشبع العقول وتغيّر القلوب، وتمتع الأبصار بما فيه من التناسب والترابط.

- براعة التخلص تظهر في الانتقال من الاستهلال بالمقدمة إلى الموضوع الرئيسي في الكلام، بما لا يشعر المتلقّي بهذا الانتقال، فكأن المتكلم ينفكّ بصورة رائعة مما هو فيه، لينتقل إلى ما بعده فيصنع رابطاً مناسباً بينهما، من غير أن يشعر الآخرين بهذا الانتقال، وهو من الأمور المهمّة في صناعة الكلام.
- يطلق سوء التخلص على الكلام إذا كان متشتتاً متفككاً غير متجاذب ولا متماسك، وهو ينتقل من فكرة إلى أخرى ومن غرض إلى آخر في الموضوع الواحد أو القصيدة الواحدة، متبع لأسلوب الاقتضاب في الحديث أو كثرة التقسيم والتبويب واختلاف العنوان، وقطع الكلام بلفظ "أمّا بعد" وغيرها من وسائل العجز عن التخلص.
- يتحقق علم المناسبة لمّا يكون الربط بين فقرات النصّ، شديدا، والسابق بحاجة الى اللاحق لا ينفك عنه، ويوجد تلازم ذهني بين فقرات الموضوع. كالعلّة والمعلول، أو السبب والمسبب، وتكون المناسبة في آيات القرآن، من وضع الآية في موضع يناسبها، وارتباط الكلام بوقوعه في نص متّحد مرتبط أوله بآخره. أمّا في حسن التخلص فلا توجد روابط بين الموضوعات وإنّ الإنتقال بينها يكون بإيجاد علاقة مميّزة، وانتخاب موضوعا مشتركا يربط بين فقراتها، فالفقرة الأولى متكاملة ليس بحاجة الى الفقرة التالية، وإنّما تطرح لإكمال الفكرة، بشكل لا يجعل القارئ يشعر بهذا الانتقال.

www.SID.ir

Archive of SID

- معنى الاستطراد يقرب من التخلص، وكأنّهما لا ينفصلان ولا يكادان يفترقان، بفرق بسيط بينهما، في التخلص تركت ما كنت فيه بالكلّية وأقبلت على ما تخلصت إليه وفي الاستطراد تمرّ بذكر الأمر الذي استطردت إليه مرورا كالبرق الخاطف ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصده وإنما عرض عروضا.
- الاقتضاب هو الخروج من الكلام بغير لطيفة وبغير مناسبة تربط بين الكلامين فهو الاقتضاب ويُسمّى الاقتطاع والارتجال أيضا، وهو أن ينتقل الناثر والناظم ممّا ابتدء به الكلام إلى ما لا يلائمه، فالاقتضاب يضاد التخلص، فالاقتضاب هو الفصل والتخلص هو الوصل.
- حسن التخلص من روائع النص القرآني من أجل ربط آياته وسوره في معانيها وكنوزها التي لا تنفد على مر الأزمان وطول الدهر، فكتاب الله الذي هو أبلغ الكلام ذي الظاهر الأنيق والباطن العميق الذي لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلا به، فهو بتنوع إعجازه التي لا يتمكن العقل البشري أن يحصيها ويعدّها، ومع طول سوره وآياته، يجذب السامع ويؤثر فيه، لكثرة التخلصات الحسنة في الخطاب القرآني وزيادتها وتفرعها وعمقها، وأكثر التخلصات في القرآن تندرج تحت عنوانين: التخلص من التكوين إلى التشريع وبالعكس، والتخلص من الفكرة إلى القصة وبالعكس.
- يظهر التخلص في سورة الكهف واضحاً، حيث تنتقل السورة في قصصها الأربعة تحمل معها فكرة الزينة والموقف الإيجابي منها كما في قصة أصحاب الكهف وذي القرنين، أو الموقف السلبي منها كما في قصة صاحب الجنتين. وكل قصة لوحدها كاملة متكاملة ليس بحاجة إلى القصة التالية، ويحصل الانتقال من قصة إلى أخرى بروعة تخلص ملائم يجذب القارئ، بإيجاد رابطة بين القصص الأربعة التي ذكرتها القصة.

أسال الله العلي القدير أن يوفق المصلحين في أرضه العارفين بكتابه التابعين لمنهجه لكل خير وصلاح. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود/٨٨).

www.SID.ir

Archive of SID

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. حسن أحمد، آلاء (لا تا). مراحل التطور البلاغي والنحوي في البلاغة العربية (حسن التخلص أنموذجا).

٢. ابن الأثير، ضياء الدين (١٤٢٠هـ). *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

٣. ابن الجوزي، جمال الدين (١٩٧١م). *ذم الهوى*. بيروت: دار الكتب العلمية.

٤. ابن عاشور، محمد الطاهر (١٩٨٤م). *التحرير والتنوير*. تونس: الدار التونسية للنشر.

٥. ابن المعتز، عبد الله بن محمد (١٤١٠هـ). *البديع في البديع*. بيروت: دار الجيل.

٦. الأبياري، إبراهيم بن إسماعيل (١٤٠٥هـ). *الموسوعة القرآنية*. القاهرة: مؤسسة سجل العرب.

٧. البامياني، محمدي بن محمد حسين (٢٠٠٨م). *دروس في البلاغة: شرح مختصر المعاني للتفتازاني*. بيروت: مؤسسة البلاغة.

٨. البستاني، محمود (لا تا). *في عمارة السورة القرآنية*.

٩. البقاعي، برهان الدين (١٤٠٤هـ). *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*. بيروت: دار الكتاب الإسلامي.

١٠. البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٤٠٦هـ). *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب*. القاهرة: مكتبة الخانجي.

١١. التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر (١٤١١هـ). *مختصر المعاني*. قم: دار الفكر.

١٢. الجرجاني، محمد بن علي بن محمد (١٩٩٧م). *الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة*. القاهرة: مكتبة الآداب.

١٣. الجوهري، إسماعيل بن حماد (١٤٠٧هـ). *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية*. بيروت: دار العلم للملايين.

١٤. الحازمي، أحمد بن عمر (لا تا). *شرح سلم الوصول في علم الأصول*.

١٥. حبنكة، عبدالرحمن بن حسن (١٤١٦هـ). *البلاغة العربية*. دمشق: دار القلم.

١٦. الحموي، أبو بكر علي بن عبد الله (٢٠٠٤م). *خزانة الأدب وغاية الأرب*. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

١٧. الحلي، حيدر (لا تا). *العقد المفصل في قبيلة المجد المؤثل*. مدرسة الفقاهة.

١٨. الحيدري، محمد (١٤٢٣هـ). *معجم الأفعال المتداولة*. قم: المركز العالمي للدراسات الإسلامية.

www.SID.ir

Archive of SID

١٩. الخفاجي الحلبي، عبد الله محمد بن سنان (١٤٠٢هـ). *سر الفصاحة*. بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٠. الخضر، زكريا علي محمود (١٤٣٢هـ). «حسن التخلص في سورة النور». *مجلة العلوم الشرعية*، جامعة القصيم مجلد ٦، عدد٢، رجب.

٢١. درويش، محيي الدين بن أحمد (١٤١٥هـ). *إعراب القرآن وبيانه*. دمشق؛ بيروت: دار ابن كثير.

٢٢. دسوقي، محمد بن عرفة (لا تا). *حاشية الدسوقي على مختصر المعاني*. بيروت: المكتبة العصرية.

٢٣. الراغب الأصفهاني، أبوالقاسم (١٤٢٠هـ). *تفسير الراغب الأصفهاني*. طنطا: جامعة طنطا.

٢٤. الراغب، عبد السلام أحمد (١٤٢٢هـ). *وظيفة الصورة الفنية في القرآن*. حلب: فصلت للدراسات والترجمة والنشر.

٢٥. الزبيدي، محمد مرتضى (١٩٨٤م). *تاج العروس*. بيروت: دار الفكر.

٢٦. الزحيلي، وهبة بن مصطفى (١٤١٨هـ). *التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج*. دمشق: دار الفكر المعاصر.

٢٧. الزرقاني، محمد عبدالعظيم (١٩٩٦م). *مناهل العرفان في علوم القرآن*. بيروت: دار الفكر.

٢٨. الزركشي، محمد بن بهادر (١٣٩١هـ). *البرهان في علوم القرآن*. بيروت: دار المعرفة.

٢٩. الزمخشري، محمود بن عمر (١٤٠٧هـ). *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*. بيروت: دار الكتاب العربي.

٣٠. السيوطي، جلال الدين (١٣٩٤هـ). *الإتقان في علوم القرآن*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣١. الصدر، محمد باقر (١٩٩٧م). *دروس في علم الأصول*. قم: اشكناني.

٣٢. الصدر، موسى (١٤٢٠هـ). *دراسات للحياة*. بيروت: مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات.

٣٣. الطباطبائي، محمد حسين (١٩٧١م). *الميزان في تفسير القرآن*. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٣٤. الطريحي، فجر الدين (١٤٠٨هـ). *مجمع البحرين*.

٣٥. عباس، إحسان (١٩٨٣م). *تاريخ النقد الأدبي عند العرب*. بيروت: دار الثقافة.

٣٦. عبدالحميد، أحمد مختار (١٤٢٩هـ). *معجم اللغة العربية المعاصرة*. القاهرة: عالم الكتب.

٣٧. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (١٤١٩هـ). *الصناعتين*. بيروت: المكتبة العصرية.

٣٨. العلوي، يحيى بن حمزة (١٤٢٣هـ). *الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز*. بيروت: المكتبة العنصرية.

www.SID.ir

Archive of SID

٣٩. العمادي، أبو السعود (لا تا). *تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٤٠. الفاروقي، محمد بن علي (١٩٩٦م). *موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم*. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

٤١. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (لا تا). *العين*. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

٤٢. القزويني، محمد بن سعدالدين (١٩٩٨م). *الإيضاح في علوم البلاغة*. بيروت: دار إحياء العلوم.

٤٣. الشاربي، سيد قطب إبراهيم (١٩٦٧م). *في ظلال القرآن*. بيروت: دار الشروق.

٤٤. ــــــــــــــ (٢٠١٣م). *التصوير الفني في القرآن*. بيروت: دار الشروق.

٤٥. القيعي، محمد عبد المنعم (١٤١٧هـ). *الأصلان في علوم القرآن*. مدرسة الفقاهة.

٤٦. المطعني، عبدالعظيم إبراهيم (١٤١٣هـ). *خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية*. القاهرة: مكتبة وهبة.

٤٧. مطلوب، أحمد (١٩٨٩م). معجم *النقد العربي القديم*. بغداد: دار الشؤون الثقافية.

٤٨. مسلم، مصطفى (١٤٢٦هـ). *مباحث في التفسير الموضوعي*. دمشق: دار القلم.

٤٩. الموصلي، نصرالله بن محمد (١٩٩٥م). *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*. بيروت: المكتبة العصرية.

٥٠. نظام الاعرج، حسن بن محمد (١٤١٣هـ). *شرح النظام على الشافية*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٥١. الهاشمي، أحمد بن إبراهيم (٢٠٠٧م). *جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع*. بيروت: المكتبة العصرية.

٥٢. الواحدي، علي بن أحمد بن محمد (لا تا). *شرح ديوان المتنبي*. مدرسة الفقاهة.

www.SID.ir